

حول كتاب سيبويه

للدكتور هشام الطعان

كتاب سيبويه يغني عن أي تعريف جديد، وليس لأي دارس للعربية غنى

عنه.

ولستُ بصدد إضافة إطرأٍ جديد للكتاب، أو اكتشاف جانب جديد من جوانبه الثرة. إنما أنا أطرح منهجاً لإعادة تحقيقه تحقيقاً يوازي نفاسته، فقد طبع الكتاب عدة طبعات آخرها طبعة الأستاذ الفاضل عبدالسلام محمد هارون، وكانت خير طبعاته. وفي حدود جهد الفرد، كانت أحسن ما يتوقع المتوقع.

إلا أنني أطمح إلى خير من هذه الطبعة، وفق منهج اتبناه، يتواءم مع المنهج العلمي للتحقيق، على أن تنهض به لجنة من المختصين، وذلك لوعورة الطرق إلى القيام بهذا العبء الثقيل والضروري. وسألخص وجهة نظري في:

(١) الرواية القديمة للكتاب:

فهي مظلمة مربكة، حتى إذا اطّرحنا جانباً ما قيل من أن سيبويه قد أوصى بدفن نسخة الكتاب معه في قبره، لتهافت هذه القصة، ولأن ذلك يعني فيما يعني أن النسخة الوحيدة للكتاب قد دفنت، وأن ما بأيدينا من هذه النسخ الكثيرة ليست من الكتاب ولا من سيبويه في شيء.

أقول: إذا اطّرحنا هذه القصة، فإن الرواية القديمة للكتاب تبقى مظلمة مربكة، فقد قيل لنا: إن الأخفش الأوسط هو طريقنا الوحيد إلى الكتاب وعنه رواه المازني والجرمي، وعن المازني رواه المبرد، وعن المبرد أخذَه الزجاج وأبو الحسين محمد بن ولّاد، أما أبو عمر الجرمي فقد قرأه عليه

المازني (!) والمبرد.

وعلى الجرمي - لا على الأخفش! قرأه أبو إسحاق الزيادي الذي كان قد قرأه على سيبويه ولم يتمه ثم فشا الكتاب وانتشر، وكثر دارسوه وكثرت رواياته. إلا أن هذه الروايات الأولى للكتاب لم تذكر دون تحريض فقد قيل أيضاً أن سيبويه مات والكتاب بحوزة الأخفش، فخشي الجرمي والمازني أن يدعيه لنفسه، فزعا أنهما يريدان قراءته عليه وتتلماذا له حتى استخرجا الكتاب.

وقد أحسّ الأولون أن بداية الكتاب مفاجئة، مما يشعر أن سيبويه مات قبل أن يستوي كتابه وفق مناهج التأليف العربية.

وعلى أية حال، لقد جاءت الطبعة الأخيرة - طبعة الأستاذ عبدالسلام هارون - مصدرة بسند كل رجاله من أعلام اللغة والنحو، وأعقب هذا الإسناد كلام لأبي جعفر النحاس، أحد رواة الكتاب عن أبي ولاد فيه ثناء على الكتاب، ويبدو لي أن هذا الكلام قد أقحم إقحاماً وقد وجدته مفرداً في رسالة ضمن مجموع في مكتبة شهيد علي (بالسليمانية).

ولو أن النسخ جاءت متطابقة إلا مما يعتري بعضها من تصحيف أو تحريف أو سقط أو تلف... إلخ، وهي أمور مألوفة، لكان الأمر هيئاً، ولتغاضينا عن مسألة الرواية القديمة، ولقلنا: إن عود التأليف في هذا الموضوع كان غضاً، ولم تقعد له القواعد، ولا لإسناده حينذاك كما ينبغي لكننا سنرى أن الأمر جرى بخلاف ذلك.

(٢) النسخ القديمة الباقية

لدينا نسخة قديمة لجزء من الكتاب في الخزانة المتوكلية، بالمجامع

المقدس في صنعاء، تقول بعثة معهد المخطوطات العربية عنه: يرجع تاريخه إلى ١٢٠٠ سنة، أي إلى قريب من عصر المؤلف.

وفي مكتبة الأمبروزيانا في ميلانو نسخة مكتوبة على رق غزال من القرن الثالث للهجرة. الموجود منها الجزآن التاسع والعاشر من الكتاب.

وفي لقاء أجرته مجلة ألف باء مع الأستاذ عبدالعزيز بنعبد الله، ذكر أنه ما زالت في المغرب النسخة الأصلية للكتاب (!) ولم أعرف ماذا عنى بالأصلية.

إن كل نشرات الكتاب لم تستفد من أية من هذه النسخ القديمة وهذا وحده كاف للتفكير في إعادة تحقيقه.

(٣) نسخ الكتاب القديمة التي لدينا أخبارها ونتف منها:

لقد كانت العناية بالكتاب عظيمة منذ جيل الرواة الأول، واستمرت هذه العناية قروناً طويلة، واتسعت. وقد بدا أبو عمر الجرمي بنسبة شواهد الكتاب، ونقل ابن المستوفى أنه وجد في بعض نسخ الكتاب: قال أبو عثمان المازني^(١).

وألف المبرد في نقده واطّرد بعد ذلك التأليف شرحاً وتعليقاً وشرحاً للشواهد... الخ. وللشروح شأن أذكّره، إلا أنني وجدت إشارات كثيرة إلى نسخ للكتاب كانت في حوزة أعلام اللغة والنحو في عصور مختلفة فقد كانت للفراء نسخة، وللجاحظ نسخة. وقال البغدادي مرة: عندي نسختان جليلان من كتاب سيويوه^(٢). وذكر مرة أخرى: نسخة عتيقة من الكتاب تختلف

(١) شرح أبيات المغني - البغدادي ١/٣٧٣.

(٢) شرح أبيات المغني - البغدادي ٢/٨١-٨٣.

عن النسخ المعروفة^(٣) ونقل ابن سيده عن أبي علي الفارسي قوله: وفي بعض النسخ من كتاب سيبويه... وفي نسخة أخرى^(٤).

ولا أظن أن استقصاء هذه الإشارات الصريحة هو كل ما يراد من محققي الكتاب، وإنما يجب أن نفترض أن الزمخشري كانت لديه نسخة في الأقل، وكذلك البكري، والسيوطي، وأبو حيان النحوي، وكل من نقل عن كتاب سيبويه.

إن ضياع هذه النسخ لا يفت في العصد، فقد تناثر الكثير منها في مؤلفات هؤلاء الأعلام، وسنرى أية فوائد يمكن أن تفيدها من هذه الننف المبعثرة.

إن على اللجنة التي تأخذ على عاتقها تحقيق الكتاب، أن تشمر عن سواعدها لاستخراج هذه الننف من مظانها. وقد يسر الأستاذ كوركيس مواد في كتابه (سيبويه أمام النحاة) كثيراً من هذا الأمر.

(٤) شروح الكتاب وما إليها

لقد ذكرت العناية بالكتاب شرحاً وتعليقاً ونقداً، وقد وصل إلينا الشيء الكثير من هذه الكتب، وطبع قسم منها.

إن بعض النشرات قد أفادت من بعض هذه الكتب، وهو منهج سليم، لكن أمام المحققين أن يفيدوا من كل الشروح والتعليقات والدراسات القديمة الباقية، المطبوعة والمخطوطة، لأنها تحمل في أثنائها ننفاً من نوع الننف التي أشرت إليها، بل أكثر.

(٣) السابق نفسه ١/١١٧.

(٤) المخصص ١٤/١٤٥.

من هذه الكتب التي لم يشر الأستاذ كوركيس عواد إلى وجودها:

أ- تعليقة أبي علي الفارسي على كتاب سيبويه.

في مكتبة شهيد علي (بالسليمانية) رقمها ٢٣٥٧.

ب- تفسير غريب ما في كتاب سيبويه من الأبنية، لأبي حاتم سهل بن محمد السجستاني.

ضمن مجموع في مكتبة شهيد علي (بالسليمانية) رقمه ٢٣٥٨.

(٥) العين والكتاب

وهما كتابان حويا جلّ علم الخليل بن أحمد إلا أن العين نسب إليه تارة ونسب إلى تلميذه الليث تارة أخرى. أما الكتاب فقد نسب سيبويه صراحة، وتكفل سيبويه بحفظ حقوق شيخه، فأشار إلى كل ما أخذه عن الخليل، وهو معظم الكتاب.

إن موادّ - تكثر أو تقلّ - تشترك في الكتابين. وعلى المحققين الإفادة من ذلك.

نماذج مما حققه مما يبرر الدعوة إلى إعادة التحقيق

موادّ موجودة في كتب الأقدمين منسوبة إلى سيبويه، وليست موجودة في كتابه مثلما (نقل السيوطي أن السخاوي ذكر في "شرح المفصل" أن سيبويه أنشده بلفظ^(٥): لا تتركني فيهم أسيراً)

قال البغدادي: وأقول: إن هذا الشعر غير مذكور في كتاب سيبويه البتة، ولم أقف على قائلته^(٦) والآية الكريمة (فذلك الذي يدعُ اليتيم).

في البرهان ٤: ٣٠١ جعل الأخفش الفاء زائدة وقال سيبويه: هي جواب

(٥) البيت: لا تتركني فيهم شطيراً

(٦) شرح أبيات المغني ٨٩/١.

لشروط مقدر. أي إن أردت علمه فذلك. العكبري ٢: ١٦١ والمغني ٢: ١٧٥.

علّق الأستاذ عظيمه الذي أورد ذلك: سيبويه لم يذكر هذه الآية في كتابه^(٧)

قد تكون هذه المواد من أمالي سيبويه، مما لم يضمّنه كتابه، إلا أننا لا نستطيع أن نبتّ في ذلك، فعلى المحققين أن يدخلوا ما نُصّ على أنه من الكتاب في صلب الكتاب، وأن يجعلوا البقية ملحقاتاً به.

(٢) موادّ منصوص على كونها من الكتاب وهي موجودة فيه، ولكن القراءتين تختلفان اختلافاً كبيراً مثلما ذكر البكري أن سيبويه قال في كتابه: "الدُّوْل" في كنانة و(الدُّوْل) غير مهموز في حنيفة و(الدَّيْل) في عبد القيس^(٨).

وجاء في التتبيه للبكري أيضاً: قال سيبويه رحمه الله: (الدُّيْل) في كنانة على وزن (فُعْل) وهو مثال عزيز و(الدُّوْل) في حنيفة و(الدَّيْل) في عبد القيس^(٩) والذي في الكتاب غير هذا وذاك.

وقال الزمخشري: البُضْع مصدر "بَضَعَ المرأة" إذا جامعها. ومثله فيما حكاه سيبويه: قَرَعَهَا قُرْعاً وَدَقَطَهَا دُقَطاً^(١٠) كل ذلك بالضم.

وفي الكتاب: وقالوا دَفَعَهَا دَفْعاً كَالْقَرَعِ، وَدَقَطَهَا دَقَطاً، وهو النكاح ونحوه، من باب المباشعة^(١١) كل ذلك بالفتح.

وجاء في الفائق للزمخشري: حُنْطَب: ذكر الخنافس، وقد يفتح ظاء

(٧) دراسات لأسلوب القرآن الكريم ٢/٢٤٥.

(٨) سمط اللآلي ص ٦٦.

(٩) التتبيه ص ٤٤.

(١٠) الفائق ١/١١١٥.

(١١) الكتاب ٩/٤.

حنظب، وهذا عند سيبويه دليل على زيادة النون، وإن الوزن فُنعِل لأنَّ فُعَلَبَا
ليس بثبت عنده^(١٢)

أما في الكتاب فجاء: وأما النون فتلحق (ثانية) فيكون الحرف على فُنعَلَّ
في الأسماء مثل فُنَّرَ وَعُنْظَب^(١٣) (بالعين)

إن ما أورده نماذج فقط، وأظن تتبعه سيكشف عن شيء كثير.

الدكتور هشام الطعان

(١٢) الفائق ١/٣٢٧.

(١٣) الكتاب ٤/٢٦٩.